المذهب الواقعي

بعد نجاح الثورة الفرنسية وسقوط الملكية وصعود البورجوازية ووصولها إلى الحكم وتوليها زمام الحياة السياسية والاقتصادية ،دخلت أوروبا عهدا جديدا بحلول القرن التاسع عشر 19م تميز أساسا بثورة صناعية كبرى نقلت أوروبا من مجتمع رعوي زراعي إلى حاضرة صناعية كبرى .

قلبت أوروبا الرأسمالية وجه أوروبا كُلِّية على جميع الأصعدة ،وانعكست آثار على كل نواحي الحياة حيث شُيدت المصانع واتسعت المدن وتطور النقل بالسكك الحديدية بعد الاكتشاف الثوري للفحم ،وبالتالي أضحى التنقل متاحا وأصبحت المدينة قِبْلة القادمين من القرى والأرياف الباحثين عن العمل والثورة بعد أن فُتِح سوق العمل واسعا بفضل الرأسمالية واقتصاد السوق الحر.

اتسعت المدن وتعقدت الحياة وسادت النزعة الفردانية واختلفت المعايير الناظمة للعلاقات الإنسانية من معايير إنسانية إلى معايير مادية خالية من العاطفة والحميمية وأصبحت قيمة الإنسان تنحصر في دوره في المعادلة الاقتصادية ومدى مساهمته في دفع عجلة إنتاج السلعة التي تم تقديسها باعتبارها العنصر الأساسي والهدف الرئيسي في المعادلة الرأسمالية ،وقد أطلق "كارل ماركس" على هذه الظاهرة تسمية :"فيتيشية السلعة" ،أي تقديس السلعة .تراجعت قيمة الإنسان وفقد إنسانيته وعاش غربة روحية وتاه في مدينة تبتلع ساكنيها.

أما على الصعيد الفكري فقد سادت الفلسفة الوضعية ،والفكر المادي العقلاني الذي يَرْكَنُ إلى الحقائق الملموسة والمرئية ،ويكفر بالماورائيات والميتافيزيقا ،ولا يؤمن إلا بالتجربة ونتائجها خاصة بعد تطور الطب التجريبي على يد "جون كلود برنار".

أفرز هذه الظروف أشكالا فنية جديدة ملائمة لها تعبر عنها ،وقد كان المذهب الواقعي خير تعبير فني عنها سواء في الفن التشكيلي أو الموسيقى أو الأدب ،وهو محور اهتمامنا.

أخذت الواقعية تهيمن على كل شيء مع منتصف القرن التاسع عشر ، لتتربع على عرش الأدب والفن، فبرزت في القصة والرواية والمسرحية والرسم، ودعا روادها إلى الموضوعية في الإبداع، وتبني دقة الملاحظة في تصوير العالم الخارجي وخلجات النفس الإنسانية، والثقة بالعلم في حل مشكلات الإنسانية. نشطت الواقعية دا خل هذه المرجعيات الثقافية والفكرية الجديدة (المذكورة أعلاه)، وسعت إلى ا كتشاف القوانين التي تتحكم في المجتمع والعلاقات الاجتماعية، وآمنت بأن الإنسان خاضع لقوانين وسنن صارمة

.لذلك آمن الواقعيون بالعلم والديمقراطية وحتمية تغيير المجتمع.كما رفضوا الروح الأكاديمية اللصيقة بالإبداعات الكلاسيكية، وعبروا عن حياة العمال والفلاحين والشرائح الاجتماعية الفقيرة، فجاءت موضوعاتهم معبرة عن تنوع الحياة وتشعبها. اختار الواقعيون موضوعات جديدة، بعيدة كل البعد عن موضوعات الكلاسيكيين وموضوعات الرومانسيين .كما تبنوا أساليب جديدة في الإنشاء والتعبير، قصد تحقيق شفافية المقروئية وضمان وضوح الدلالة، وتغيرت وضعية الشخصية الأدبية من حالة النماذج الجاهزة المحنطة إلى وضعية الشخصية الإشكالية المتجذرة في عالم مأزوم يفتقر إلى اليقينيات والمعاني الإيجابية.

حرصت الواقعية على الارتباط بالواقع وتسجيل خباياه وأسراره، وهي بخلاف الرومانسية التي قامت على فكرة الخلق (الأديب لا يحاكي العالم وإنما يخلقه من العدم ويبعث فيه الحياة)، تقول بمحاكاة الحياة

ورصد شتى المظاهر الاجتماعية .ولكن هذه المحاكاة ليست تسجيلا فوتغرافيا ولا نقلا آليا لزخم الحياة بإيجابياته وسلبياته، بل هي عملية ابتداع للواقع وصياغته صياغة واعية تقوم على المتخيل والتصوير والتشكيل والنمذجة، إن الكتابة الواقعية عملية إبداعية تستند إلى الواقع وتستوعبه وتتمثله، ثم تصبه في معمارية فنية تقوم على التماسك والانسجام . عزف الواقعيون عن التعقيد وعن الزخرفة اللفظية المعروفة لدى الكلاسيكيين وعن لغة الطبقات الأرستقراطية وتبنوا لغة الشرائح الاجتماعية الشعبية.

أشكال الواقعية:

وهي الشكل الذي أخذته الواقعية في القرن التاسع عشر،أي أن الواقعية ولدت انتقادية، لأن أوضاع المجتمع الصناعي الأوروبي في منتصف القرن التاسع عشر، كانت تحول دون تبلور فكر ثوري جماهيري مؤثر في الفنون والآداب .فاكتفت الواقعية وقتها برصد التناقضات الاجتماعية والكشف عن خبايا الأزمات الكبرى التي كانت تعصف بأوربا .وقد تحرى الأديب الواقعي النقدي الصدق في وصفه لحركة التطور الاجتماعي .ويعد هذا الموقف وقتها موقفا إيجابيا، لأنه رفض الصمت والانصياع للإيديولوجية البورجوازية وآثر تعرية الواقع ووصفه كما هو بكل موضوعية وبكل جرأة .ولكونه يفتقر إلى النضج السياسي، وإلى الوعي الإيديولوجي وإلى الرؤية الجدلية وإلى الشمولية، لأنه لم يستطع تفكيك الواقع وإعادة بنائه وفق نظرية ثورية بهدف تغييره وتحويله والقضاء عليه، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن الواقعية النقدية تمثل الطرف الثاني من الجدلية أي نقيض الأطروحة.

يعد الروائي الفرنسي بلزاك، أشهر ممثل للواقعية النقدية، ويرى لوكاتش أن بلزاك، رغم انتماءاته السياسية البورجوازية، ورغم تعاطفه مع الملكية، إلا أن كتاباته تعكس إيديولوجية تقدمية وتحررية ذلك، أنه يجب أن نفرق بين إيديولوجية الكاتب بوصفه مواطنا وإنسانا وإيديولوجية كتاباته التي لا تخضع إلا لمنطق الكتابة ونسيج الدلالات.

وقد صور كتاب الواقعية النقدية الحياة الممزقة، الحياة التي تسحق كل ما في الإنسان من جميل وعظيم بلا رحمة ولا هوادة .ولهذا السبب غلبت على رؤيتهم مسحة من التشاؤم .ومع الواقعية النقدية، تتفجر أبنية العالم القديم، وتهتز أركان اليقينيات البورجوازية، فيتشكل لدى الإنسان وعي مأساوي بالحياة، تعبر عنه الرؤية من خلال البطل الإشكالي الممزق بين الحنين إلى فردوس القيم الأصيلة التي ولت إلى غير رجعة من جهة، والتطلع إلى تحقيق الذات الإنسانية في عالم يسوده الاغتراب والضياع والتواصل المستحيل من جهة أخرى، إنها صخرة سيزيف التي تسد الآفاق وتثبط العزائم والهمم.

نلاحظ أن الواقعية النقدية، ورغم الانتقادات الكثيرة التي وجهت لها، خاصة من أنصار الواقعية الاشتراكية وأنصار الواقعية الجديدة، لا تزال مصدر إلهام بالنسبة لكثير من المبدعين في العالم.

الواقعية الاشتراكية:

ظهر الاتجاه الاشتراكي في الفلسفة والسياسة والاقتصاد وتبلور على يد كل من "كارل ماركس" و"فريديريك إنجلز" خلال القرن التاسع عشر وينطلق من انتقاد جشع البورجوازية والنظام الرأسمالي ،ويرى أن البورجوازية – التي وعدت الأوروبيين بالجنة – عادت للممارسات نفسها التي ثارت عليها من استغلال وتفرقة وكيل بمكيالين ،وأن النظام الرأسمالي القائم على حرية المبادرة والاستثمار ساعد على استغلال أرباب العمل للبسطاء والضعفاء والعمال دون رقابة أو محاسبة.وعليه اقترح "ماركس"

الاشتراكية القائمة عل ملكية الدولة لكل وسائل الإنتاج حيث يتساوى الجميع ودعا إلى الثورة من أجل تبني هذا التصور.وقد شاع هذا الفكر على نطاق واسع ،وانتقل إلى الفن والأدب .

تتمثل المبادئ الإيديولوجية والجمالية الأساسية للواقعية الاشتراكية فيما يلي :الوفاء للإيديولوجية الشعبية، وضع النشاط الإنساني في خدمة الشعب وروح الحزب، الارتباط العضوي بنضال الجماهير الكادحة، نزعة إنسانية اشتراكية وأممية، تفاؤل تاريخي، رفض الشكلانية والذ ا تية .

تمثل الواقعية الاشتراكية بالنسبة لأدباء الاتحاد السوفياتي - الذي كانوا وقتها بصدد وضع الأسس لمجتمع اشتراكي مثالي ونموذجي- الروح الملحمية الجديدة التي تؤسس للبطل الاشتراكي، صانع التاريخ ومستقبل الإنسانية .وأضحت الواقعية الاشتراكية، بداية من 1934هي الإيديولوجية الأدبية الرسمية التي لا يجوز الخروج عنها في الإبداعات الفنية والأدبية .ووضع الأديب الناقد السوفياتي مبادئ وقواعد صارمة لهذا المذهب، بحيث لا يجوز الخروج عنها .وكل من تسول له نفسه الابتعاد عن هذا المنهج الرسمي، يجد نفسه عرضة لاتهامات خطيرة قد تؤدي به إلى القتل، السجن أو المنفى.

وقد انتشرت الواقعية الاشتراكية في كل بلدان العالم، تنظيرا وإبداعا، ورأى فيها بعض كبار الأدباء العالميين مشروع بعث إنسانية جديدة، ومن روادها الكبار، الشاعر الروسي مايا كوفسي، والأديب الروسي الذائع الصيت غوركي، ولويس أراغون في فرنسا وناظم حكمت في تركيا، وبابلونيرواد في الشيلي، وغارسيا لوركا في إسبانيا ومحمد ذيب في الجزائر.